من تراث الشعر والنثر*

بر الآباء

كان أمية بن الأسكر الكناكي من سادات قومه، وكان له ابن اسمه كلاب. هاجر إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب، فأقام بها مدة ثم لقي ذات يوم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فسألهما: أي الأعمال أفضل في الإسلام؟ فقالا: الجهاد. فسأل عمر فأغزاه في الجند الغازي إلى الفرس. فقام أمية وقال لعمر: يا أمير المؤمنين هذا اليوم من أيامي لولا كبر سني، فقام إليه ابنه كلاب وكان عابداً زاهداً فقال: لكني يا أمير المؤمنين أبيع الله نفسي وأبيع دنياي بآخرتي، فتعلق به أبوه، وكان في ظل نخل له وقال: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيراً حتى إذا احتاجا إليك تركتهما. فقال: نعم أتركهما لما هو خيرٌ لي.

فخرج غازياً بعد أن أرضى أباه، فأبطأ، وكان أبوه في ظل نخل له، وإذا حمامة تدعو فرخها، فرآها الشيخ فبكى، فرأته العجوز. فبكت وأنشأ يقول:

لمن شيخان قد نشدا كلابا
كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيعرض في إباء
فلا وأبي كلاب ما أصابا
إذا هتفت حمامة بطن وَجّ«١»
على بيضاتها ذكرا كلابا
فإن مهاجرين تكنانه
ففارق شيخه خَطِئاً وخابا
تركت أباك مُرعَشَةً يداه
وأمَّك ما تسيغ لها شرابا
تنفّض مهده شفقاً عليه
وتجنبه أباعرها الصعابا
فإنك قد تركت أباك شيخاً
يطارق«٢» أنيقاً«٣» شرباً«٤» طرابا
إذا رُتّعن إرقالاً«٥» سراعاً
أثرن بكل رابية ترابا
طويلاً شوقه يبكيك فرداً
على حزن ولا يرجو الإيابا

فإنك والتماس الأجر بعدي
كباغي الماء يتبع السَّرابا

وكان أمية قد أضر «أي عمي» فأخذ قائده بيده ودخل به على عمر وهو في المسجد فأنشده:

أعاذل قد عذلت بغير علم
وما تدرين عاذلُ ما ألاقي
فإما كنت عاذلتي فُردّي
كلاباً إذ توجه للعراق
ولم أقض اللبّانة من كلاب
غداةَ غد وآذن بالفراق
فتى الفتيان في عسر ويسر
شديد الركنُ في يوم التلاقي
فلا وأبيك ما بليت وجدي
ولا شفقي عليك ولا اشتياقي
وإيقادي عليك إذا شتونا
وضمَّك تحت نحري واعتناقي
فلو فلق الفؤاد شديدُ وجد
لهمَّ سوادُ قلبيَّ بانفلاق
سأستعدي على الفاروق ربّاً
له دفع الحجيج إلي بساق«٦»
وأدعو الله مجتهداً عليه
ببطن الأخشبين«٧» إلى دقاق«٨»
إن الفاروقُ لم يردد كلاباً
على شيخين هامهما زواق«٩»

فكتب عمر برد كلاب إلى المدينة. فلما قدم ودخل عليه قال له عمر: ما بلغ من برّك بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت إن أردت أن أحلب له لبناً أجيء إلى أغزر ناقة في إبله فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها «ضروعها» حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

فبعث عمر إلى أمية فجاءه فدخل عليه وهو يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى، فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟

فقال له: كما ترى يا أمير المؤمنين.

فقال: يا أبا كلاب، ما أحب الأشياء إليك اليوم؟

قال: ما أحب اليوم شيئاً، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شر.

فقال عمر: بل على ذلك.

قال: بلى، كلاب أحب أنه عندى فأشمّه شمّة وأضمّه ضمّة قبل أن أموت. فبكى عمر وقال: ستبلغ ما تحب إن شاء الله تعالى.

ثم أمر كلاباً أن يحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث بلبنها إليه ففعل وناوله عمر الإناء وقال: اشرب يا أبا كلاب. فأخذه، فلما أدناه من فيه قال: والله يا أمير المؤمنين إني لأشمُّ رائحة يديْ كلاب. فبكى عمر وقال له: هذا كلاب عندك وقد جئناك به. فوثب إلى ابنه وضمه، وجعل عمر والحاضرون يبكون، وقالوا لكلاب: الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما، وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه.

وتغنت الركبان بشعر أبيه فبلغه فأنشأ يقول:

لعمرك ما تركت أبا كلاب
كبير السن مكتئباً مصابا
وأماً لا يزال لها حنينٌ
تنادي بعد رقدتها كلابا
لكسب المال أو طلب المعالي
ولكني رجوت به الثوابا

وكان كلاب من خيار المسلمين فلم يزل مقيماً عندهما حتى ماتا.

---

* الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ١٨/١٥٧.
١ـ اسم واد بالطائف.
٢ـ يضرب.
٣ـ جمع ناقة.
٤ـ ضامرة.
٥ـ الإرقال: السير السريع.
٦ـ جبل عرفات.
٧ـ جبلان بمكة.
٨ـ موضع.
٩ـ زقا صاح وصراخ الهام معروف وهو من خرافات العرب.